نحيب في الظلام

لم تكن مجنونة بمعنى الكلمة .. ولكن كان بها مظاهر شذوذ عجيبة .. تكاد تجعلها فى عداد المجانين لولا فرط رقتها وهدوئها وسكينتها .

لقيتها أول مرة فى دارها خلال زيارة لها بقصد استجار الدار فى الصيف ، وكانت تقطنها مع أب عجوز وهن العظم منه فهو لايكاد يغادر مقعده .

وأحببت الدار لقدمها وفساحة حديقتها وكثافة أشجارها اذ كانت احدى الدور العتيقة الكبيرة الكائنة فى رمل الاسكندرية بالقرب من زيزينيا ، ولم يدع لى رخص ايجارها مجالا للتردد ، فسرعان ما استأجرتها فى فترة الصيف ونزلنا فى الدار ، وانتقلت الإبنة وأبوها الى جناح أشبه بالسلاملك قائم فى أقصى الحديقة منفصل عن الدار .. ومرت بنا الأيام ونحن نستمتع بالدار والحديقة والشاطىء الى أقصى حدود الاستمتاع حتى لانكاد نشعر بأصحاب الدار أو نبصر لهم وجها الا فى النادر القليل .. ولولا ذلك الطاهى العجوز الذى كنا نبصره حاملا

سلة الخضار فى ذهابه وأوبته لما أحسسنا أن هناك أحياء يقطنون بجوارنا على قيد خطوات منا .

ولقد كان انطواء الأب العجوز فى داره وقبوعه فى عقرها أمرا لايستثير دهشا ، فقد كان الرجل من فرط عجزه يكاد يكون مقعدا .. ولكن ما أثار عجبنا هو انطواء الابنة وامعانها فى التباعد والاختفاء .

وظننت بادىء الأمر أن انطواءها مرجعه الى انكبابها على العناية بأبيها ومداومتها على خدمته وقضاء حاجاته .. ولكنى وجدت هذا العذر – بفرض صحته – أمرا مبالغا فيه لأن الرجل لم يكن مريضا .. وكل ما به لم يكن يعدو عجز الشيخوخة .. وما كانت حالته بالتى تستدعى منها أن تهجر الدنيا والناس لتربط نفسها بجواره . وأكثر من هذا ، لقد تبين لى .. فى الأوقات المتباعدة التى ذهبت فيها لزيارة الرجل .. أن الإبنة لم تكن ملازمة له .. ولا كانت منكبة على العناية بأمره .. بل انى لم أحس لها وجودا .. أو أرى لها أثرا .. وكان الطاهى العجوز .. وهو وحده القائم على خدمته المتولى أمره .

كانت الفتاة ولاشك مخلوقة شاذة .. نفورة .. مستوحشة .. ولكن شذوذها لم يكن يعنينا الا بقدر ذلك العطف الذى أثاره فى نفوسنا عليها .. فلقد كنا نراها فى مظهرها مخلوقة حلوة رقيقة .. لطيفة المعشر مستحبة الرفقة .

أقول ان شذوذها .. لم يكن يعنينا فى كثير ولا قليل ، اذ كان شذوذا سلبيا .. لا ضرر منه على أحد .. فقد كنا لانكاد نحس به ولابها .. حتى حدث ذات ليلة .. وأنا أتقلب فى الفراش مستجلبا الكرى .. أن بلغ مسمعى صوت بكاء أشبه بالأنين .. يحمله نسيم الليل خافتا من الحديقة .

وأصابنى الصوت برجفة .. فهو بكاء مفاجىء فى وحشة الليل وسكونه .. والبيت كما قلت عتيق فسيح .. والحديقة متكاثفة الشجر .. شديدة الوحشة .. كل ذلك لايجعل النفس تتقبله بسهولة .. وبغير فزع .

وعدت أنصت .. مرهف السمع .. حاد الأذنين .. ولكن الصوت لم يتكرر .. حتى خلتنى واهما .. وخلته مواء قطة .

وفى الليلة التالية .. سمعت الصوت .. ولم أكن وحدى الذى سمعته .. بل سمعه نفر غيرى من الأهل الراقدين فى فراشهم .

وأقض الصوت مضجعى .. فقد أحسست منه بخوف مزدوج .. الأول خوفى منه كشىء مفزع .. والثانى خوفى من الأهل الذين سبق أن اعترضوا على سكنى فى مثل هذه الدار الفسيحة العتيقة الموحشة .. والذين سبق أن توجسوا خيفة من رخص ايجارها .. ولكنهم لم يملكوا سوى القبول أمام الحاحى .

وفى الليلة الثالثة لم آو الى فراشى .. فقد كرهت أن أسمع الصوت راقدا مستسلما وصممت على أن أعرف مبعثه .

وهبطت الى الحديقة المتسعة المتكاثفة أجول خلالها . وحمل الىّ النسيم رائحة أزهار الياسمين الهندى الذى تكاثف على أشجاره المكدسة فى الحديقة .

ولم يكن القمر قد اكتمل وكانت الحديقة تسبح من ضوئه الباهت فى شبه ضباب أغرقها فى غموض ووحشة وروعة .. وأحببت الحديقة فى منظرها السحرى العجيب .. وأمعنت فى السير والتجوال بلا رهبة ولا خشية .. حتى سمعت فجأة .. صوت النحيب .

وفى هذه المرة .. كان جليا واضحا محددا .. لا لبس فيه ولاغموض .

كيف لا .. وقد كان مبعثه على قيد خطوة منى .

وأصابتنى رجفة شديدة .. رغم انعدام عامل المفاجأة فى هذه المرة .. (وعلام المفاجأة .. وأنا ما خرجت الا لأسمعه) ورغم أن مصدره لم يكن مجهولا .. ولا غامضا لأنى لم أكد أسمع الصوت حتى أبصرت مصدره . ومع ذلك فقد ارتجفت رجفة شديدة .. بل انى لا أكاد أستعيد الموقف الى ذهنى لأكتبه .. حتى تصيبنى نفس الرجفة .. وأنا جالس أكتب على مكتبى .. بلا ظلمة ولا وحشة .. ولا أنين ولانحيب .

لقد أبصرت فى مصدر الصوت .. مخلوقا لفته الظلمة فجعلت منه مايشبه الشبح .. وكان يقبع على مقعد تحت احدى الخمائل وقد انحنى ظهره واتكأ بمرفقيه على ركبتيه ودفن وجهه فى راحتيه . وأخذ يهتز على نبرات النحيب .

أنا مخلوق عصى الدموع جاف المآقى .. لا تدر مقلتى عبراتها بسهولة حتى وأنا واقف أرقب الموتى يهبطون بهم الى القبور .. ومع ذلك لم أكد أبصر الجسد المهتز فى الظلمة ، وأميز صاحبه .. أو على الأصح صاحبته .. حتى تجمعت الدموع فى مآقى .. وانسابت برغمى .. وبرغم أنى لم أعرف علام تبكى المخلوقة الشاذة المنطوية فى الظلمات .

لقد كنت اعطف دائما عليها .. وكنت فى قرارة نفسى أرجع شذوذها الى شىء فى باطنها .. أو فى قلبها .. قد أغلقت عليه صدرها .. وكبتته فى حناياتها .

ووقفت برهة صامتا .. أفكر بسرعة فيما يجب أن أفعل .. ولم أجد خيرا من أن أنسحب في هدوء .. دون أن أجعلها تشعر بي .. وبأني أبصرتها وهي تبكي .

وهممت بالعودة ، ولكن قدمي ارتطمت بحصاة .. جعلتها تتلفت نحوى دهشة فزعة .

ولم أملك الا أن ألقى عليها التحية في رقة وعطف .

ولم تجب لأول وهلة .. وبدت كأنها لاتميزني ، وكان ذهنها لايعي شيئا مما حوله .. ووقفت أرقب وجهها في الضوء الباهت وهو يحملق فيّ جزعا مرتابا .

وبدا وجهها عجيبا .. بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها وأهدابها السوداء الطويلة وعينيها الخضراوين تبرقان من وراء الأهداب ، وأنفها الأشم المستقيم وشفتيها الرقيقتين .

ولم تطل الحملقة حتى أبصرتها تنهض نافرة فزعة وتشيح بوجهها ثم تولي هاربة منطلقة نحو الدار . ولم اكن أملك ازاء ادبارها وفرارها أن أقول شيئا أو أفعل شيئا ، رغم أني كنت أود لو أستطيع محادثتها والترفيه عن نفسها وازاحة بعض أحزانها . ولما هممت بالعودة أبصرت على المقعد الذي كانت تجلس عليه حقيبة يد جلدية صغيرة مفتوحة وبجوارها قد تناثرت بضعة أشياء لم أستطع تمييزها لأول وهلة .

وترددت برهة فيما أفعله بالحقيبة والحاجيات .. أأتركها على حالها حتى تعود لأخذها .. أم أحملها وأذهب بها اليها ؟

وخشيت ان أنا تركتها أن تعبث بها يد قبل أن تعود لأخذها ، فصممت على أن أجمعها في الحقيبة وأسلمها لها . ومددت يدي أجمع

الأشياء من فوق المقعد فأدهشني أن أجدها خليطا عجيبا متناقضا لايكاد يربطها رابط .

كان أول ما عثرت عليه منديل وفرشاة أسنان ، ثم قطعة قديمة من الشيكولاته ملفوفة في ورقة بيضاء .. وقلم رخيص من الحبر الجاف ، وظرف صغير به بعض زهور البنفسج الجافة ، وماكينة للحلاقة ، وجلدة ساعة قديمة بالية ، واطار نظارة بلا زجاج ، ومنديل مستعمل لم تمتد اليه يد النظافة . وبجوار كل هذا مظروف به أوراق مطوية .

ووضعت المجموعة العجيبة المتناقضة في الحقيبة وسرت الى بيت الفتاة .. ولكنى وجدته مغلق الأبواب والنوافذ ولم أجد به أثرا لضوء .

ولم أجد من الحكمة أن أطرق الباب وأثير ضجة في الليل وصممت على أن أعود بالحقيبة اليها في الصباح الباكر .

وقبل أن يستيقظ مخلوق في الدار كنت قد ارتديت ملابسى وحملت الحقيبة وسرت في الحديقة متجها الى بيت الفتاة ، ولكنى لم أكد أبلغه حتى أبصرتها تنطلق في عجلة تجاه الخميلة .

وصحت بها فتلفتت اليّ .. ولوّحت بيدى بالحقيبة فاندفعت نحوى وجذبت الحقيبة في لهفة كأنها قد استردت حياتها .

وقالت وهى تلهث :

– حمدا لله .. لقد كنت أخشى عليها من الضياع .

وأجبت مازحا :

– كان يجب ألا تخشى شيئا من ذلك .. فليس بالحقيبة شيء ثمين يغرى بسرقتها .. فلا أظن محتوياتها بما فى ذلك قطعة الشيكولاته القديمة وفرشة الأسنان يزيد على نصف ريال .

ونظرت الىّ نظرة طويلة ثم انطلقت منها ضحكة قصيرة ساخرة خافتة وأجابت :

– ان ما بها لايقدر بثمن .. انها روحى .. أنها كل شىء فى حياتى .

وهززت رأسى فى عجب ثم هممت بالعودة عندما صاحت بى فجأة :

– هل قرأت الخطاب ؟

– لم أقرأ شيئا .. لقد جمعت بالحقيبة كل ما كان على المقعد وأغلقتها .. وأعدتها اليك كما هى .. ولكنى أتمنى الآن لو استطعت قراءته .

– لم ؟

– لأنى أود أن أعرف عنك شيئا .. أود أن أعرف ما بك .. لعلى أستطيع أن أحمل عنك بعض حزنك .. لابد للإنسان من انسان آخر يتحدث معه ويفضى اليه بهمومه .. ليس هناك أقتل للمرء من ذلك الانطواء وتلك الوحدة .. قد تكونين لم تجدى من يفهمك لكى تحدثيه عن نفسك ولكنى واثق من أنى أستطيع فهمك وتقدير مشاعرك .. حدثينى عما بك ولاتخشى شيئا .

وأطرقت الفتاة برأسها برهة ثم جذبتني نحو الخميلة .. ودون أن تنبس ببنت شفة مدت يدها الى الحقيبة فاخرجت الظرف الذى يحوى الرسالة ثم دفعتها الىّ قائلة : اقرأ .

وأمسكت بالرسالة وفضضتها وقرأت ما يلى :

(عزيزتى ..

من يصدق أنى قد بت أغار من نفسى ؟

من يصدق أنى بت أكره ذلك الشيء فى نفسى الذى طالما تمنيته وتقت اليه .. والذى كنت أهدف الى الوصول اليه لأجعل منه مثلى الأعلى ؟

من يصدق أنى بت أكره فى نفسى الكاتب العبقرى النابغة .. الذى يقدره الناس ويجلونه ويعجبون به ؟

انى أغار منه وأبغضه .. لأنك تحبينه ولاتحبينني أنا .

لا تقولى انى وهو واحد .. وانى أنا هو ، هو أنا .. لأنى واثق أنك تحبينه هو .

كيف لا وقد أحببتك وحاولت التقرب اليك .. كأنا ، بشخصى الكائن الحي .. المتحرك المنظور الملموس بلا نبوغ ولا عبقرية ، ولا كتابة ولا تأليف .. ولا وهم ولا خيال .. فلم تعيرينى أدنى التفات .. وأعرضت عنى اعراض المهمل المنكر .

(أنا) لم أفز منك بغير الأهمال والإعراض .

فماذا فعلت عندما قرأت لى .. وعرفت أننى كاتب كتبى وصاحب آرائى .. لقد أقبلت علىّ فى لهفة وشوق .. وانقلب أعراضك اقبالا .. واهمالك اهتماما ما بعده اهتمام .

وفاز منك (الكاتب) فى شخصى بما لم أفز به أنا .. وبت تقدسينني وتتلهفين عليّ .

وكان يجب عليّ أن أرضى باقبالك ، وأن أستغل لهفتك على (الكاتب) فى نفسى فأتمتع (أنا) بها ، ولكننى وجدتني أكره اعجابك بكتابتى .. أكره قولك لى : (ان كتابتك رائعة) .. (انى أعبد كتابتك) .. كرهت قولك هذا لأننى تمنيت أن يكون (انك رائع) .. (انى أعبدك) .

كرهت قولك لى .. (لا تكف عن الكتابة أرجوك . انى أريد كتبك دائما ، أكتب .. أكتب .. انى لا أتصوّر كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير القراءة لك) .

وكنت أود لو قلت لى : (انى أريدك دائما .. ابق معى لأنى لا أتصوّر كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير لقائك) .

كنت أتمنى أن تحبينى أنا .. كآدمى بسيط .. بتفاهاتى .. وسخافتى .. ومادياتى .. بدل أن تحبى فى ذلك الوهم من النبوغ والعبقرية .. والسمو .. كنت أود أن تحبينى كما أحببتك .. وكما يحب كل انسان انسانا آخر .

كنت أود أن تتلهفى على ضمى كما أتلهف على ضمك .. وأن تتوقى الى تقبيلى كما أتوق الى تقبيلك .. بدل هذا التلهف منك على كتابتى وآرائى وأفكارى .

انى بشر أولا .. ولقد وددت أن تحبينى كثيرا .

وحاولت التقرّب اليك كبشر .. ولكنك صممت على مبدئك .. وعلى أن تسمى - كما قلت - بنفسينا .. وأن يظل كل ما بيننا صلة روحية ذهنية .

فلما أصررت على مطلبي وعلى طريقتي في حبي هجرتيني .. ونأيت عني .. وأرسلت الي تودعينني قائلة :

– أكتب .. أكتب .. ان في كتابتك عزائي .. وثق أنك في ذهني دائما سأقدسك مادامت بي قدرة على التقديس .

وحاولت عبثا أن ألقاك .. حتى يئست .. واستقر بي المقام بعد هجرك .. وأنا محطم منهار ولم يك أمامي سوى شيء واحد .. هو أني أنفذ مطلبك .. فأكتب .. وأكتب .

وأقبلت على الكتابة باندفاع المجنون .. لقد كنت أحس أن في كل كلمة اكتبها وكل سطر أخطه متعة لك .. وكتبت الكتاب تلو الكتاب .. واندفعت أرقى سلم المجد – دون قصد مني – بخطى حثيثات سراع .. حتى أحسست أني قد استنفذت كل قواي .. وأني بلغت قمة المجد .. ونهاية العمر .

اني متعب منهك .. ولقد أمرني الأطباء بأن أكف عن الكتابة .. ولكني لن أكف – من أجلك – حتى أكف عن الحياة .

لن أكف حتى أكتب قصتي الأخيرة ، فاني أكتبها لك وحدك .. ولابد أن أتمها .. لقد انتهيت منها أخيرا وأنا أشعر أني بت من النهاية قاب قوسين أو أدنى .

وليس أمامي سوى أن أكتب لك هذه الرسالة لأودعك فيها .. ولأقول لك : اني كتبت وكتبت لا لمال .. ولا لشهرة ولا .. ولا .. ولكن لأجلك أنت .. أنت وحدك .. عابدة كتابتي .. ومقدسة نبوغي وعبقريتي .

ليتك تحبين فى الإنسان المتواضع .. الطيب الهادىء . كما أحببت الكاتب النابغة العبقرى .. ليتك تحبيننى .. مرة واحدة .. كبشر .

ليتك تحبيننى (أنا) . (المخلص)

ووضعت الرسالة جانبا ونظرت الى الفتاة فى دهشة بالغة ..

– وهل ذهب حقا ؟

– أجل لقد ذهب .. ليته كان يعرف .. ليته كان يعرف أننى أحببته كبشر .. أكثر مائة مرة منه ككاتب .. لقد كنت أتوق الى ضمه وتقبيله والى أن أتحسس شعره بيدى .. ولكنى كنت أجد حبه كبشر .. حبا يائسا لا أمل فيه لأنى كنت مقيدة الى مخلوق آخر .. ولم تكن هناك فرصة للفكاك . كنت احبه كبشر ..ولكنى لم أجد هناك فائدة من حبه ..فصممت على أن أحبه ككاتب .. فقد خيل الىّ أن هذا شىء مستطاع يمكن أن يدوم العمر .. وصممت على أن أجعل الصلة بيننا صلة روحية ذهنية ما دامت الصلة الجسدية قد استعصت وتعذرت .. وقلت لنفسى انها ستكون صلة أبقى على الزمن وأكثر دواما .

ونأيت بنفسى عنه .. وظللت اتعزى عنه بكتبه وأحيا معه بين السطور والكلمات .. فى دنيا من الوهم .. وعالم من الخيال .. حتى قرأت قصته الأخيرة .. التى أفنى فيها نفسه .. ثم وصلتنى رسالته .. وعلمت بعد هذا أنه ذهب .

وهنا أحسست أن صبرى قد عيل واحتمالى قد نفذ .. وأنه لم يعد فى طاقتى الاحتمال .. ولا فى استطاعتى أن أحيا كبشر مع رجل غيره .

أجل .. انني لم أحس بحاجتي اليه .. كبشر ، ألا بعد أن ذهب . وانطويت على نفسي .. متلمسة العزاء عنه .. في بقاياه التافهة .. فيما كان يسميه ماديات بشرية .. انه لم يعد يمتعني في الحياة شيء .. أكثر من أن أتلمس فرشاة أسنانه .. أو أتحسس جلدة ساعته .. أو أمسك بقطعة من الشيكولاته كان قد قضم منها بعضها وأعطاني النصف الآخر فاحتفظت به .

لقد حرمت على نفسي أن أحيا معه .. وكنت أقنعها بالصلة الروحية .. عندما كان حيا .. يلمس .. ويضم .. فلما ذهب .. أحسست بعمري قد ذهب هباء .. وضاع سدى .. ولم أعد أستطيع أن أحرم نفسي من أن أضم كل ما مسته يداه أو لفحته أنفاسه .

* * *